

الحضارة المصرية في عهد الدولة القديمة

بحث للعبودية الأثرى اربك بيت
للأستاذ أحمد نجيب هاشم

« تممة »

—><—><—><—

ولما كان الكهنة هم أكثر الناس علماً كان منهم الموظفون المسئولون عن الفيضان وعمل الترتيبات اللازمة له فكان بمعايهم مقاييس لمعرفة زيادة النيل، وكانت بسيطة التكوين، كل منها بر حلزونية أو مربعة الشكل توجد على مقربة من النهر ومتصلة به فكل ارتفاع أو انخفاض في النهر يصحبه بطبيعة الحال التل في البر، وبالتالي أرقام تقيد هذا الارتفاع أو الانخفاض، وبها درجات يستطيع المرء أن ينزل عليها كي يقرأ مستوى المياه الذي وصلت إليه يوماً بعد يوم فيعرف مقدار الزيادة، ولما كان الفيضان يبدأ غالباً جوالى الوقت نفسه كل عام سهل على الكهنة ملاحظة هذه العملية وتدوين أرقامها، وبموازنتها بالأرقام التي قيدوها في السنوات السابقة أمكنهم أن يعرفوا حالة الفيضان المقبل إن كان مرتفعاً أو منخفضاً بالنسبة لسابقه، وبذا كان في استطاعتهم أن يحددوا الوقت الذي تفتح فيه الجسور كي تنمر المياه الأرض كلها فإن كان الفيضان مرتفعاً جداً أرسلوا تحذيراً إلى الناس كي يقيموا السدود، وكانت الحكومة في هذه الساعة تسخر كل الناس في هذه العملية، وكان للفيضان أثر آخر، ذلك أن مياهه بعد أن تنمر الأرض مدة ستة أو سبعة أسابيع كانت تمحو الحدود التي بين أرض للفلاح وزميله أو تغطيها بالطمى، فعند المصريون إلى مسح الأرض كي يعرف كل فرد مساحة أرضه بالضبط، وبذلك بدأوا علم الهندسة إذ وجدوا في مسح الأرض أضبط مقياس وأنه أفضل من وضع أحجار على الحدود، ولا تزال مشكلة ضبط الحدود موجودة في مصر، فالنيل في أثناء الفيضان يزيد مساحة الأرض الواقعة على حدود الصحراء، ولذا يحاول الفلاحون هناك الانتفاع بهذه الزيادة التي تسمى بطرح البحر بضم جزء منها إلى أملاكهم

القليلة، وقد لا تبلغ هذه الزيادة ثلاثين أو ستين سنتيمتراً كل عام ولكنها تزداد على مر السنين، ولذلك يهتم مفتشو الحكومة بحراسها كما كان يفعل زملاؤهم منذ آلاف السنين

الضوء

الحفر والرسم: رأينا نواة التقدم الفني في العهد السابق للأسرات إذ وصل الحفر البارز درجة عالية كما تدل على ذلك مقابض السكاكين العادية والألواح الأردوازية والتماثيل التي وجدت في « قفط » كذلك يرينا لوح « نارمر » الذي يرجع إلى أول الأسرة الأولى كثيراً من قواعد الرسم التي استعملت فيما بعد في الفن المصري، فالرسوم الدقيقة القليلة البروز كانت مناسبة لمملكة تسطع فيها الشمس ويشد الظل، وقدر للحفر نجاح عظيم في تاريخ مصر، وليس في وسعنا أن نتبع هذا التطور في الأسرات الثلاث الأولى لقلة الأمثلة وبعد بعضها عن بعض، ولو أن لوح قبر الملك « زت » وقطعاً صغيرة كثيرة من مقابر الملوك في « أيديوس » تدل على تقدم مضطرب في الأسرتين الأوليين لا سيما من حيث المقدرة الفنية وحسن استعمال المواد، ثم تصل هذه الأمثلة فجأة إلى أجل مقابر الأسرتين الخامسة والسادسة كمقبرة « ق » في سفارة فهناك نرى الفن المصري في أوج عظمته وتنتقل العين بين الرسوم انتقالاً سهلاً، وهذه هي ميزة الفن في هذه الفترة، ولكن نلاحظ أن قواعد للنظور تكاد تكون معدومة في رسوم هذا العصر ونقوشه، فإذا أريد رسم شيء فوق آخر فإلى الفنان سوى أن يضعه فوقه، كذلك كان يرسم الانسان عادة جانبياً، ولكن مع ذلك نشاهد كتنفيه كأنما ينظر إليها من الأمام، وعلى هذه الطريقة استمر المصريون يرسمون نقوشهم طول عهد المملكة القديمة وبالرغم من هذه الغلطات فإن النقوش البارزة على الألواح الخشبية التي عثر عليها في مقبرة حى من الأسرة الثالثة تعد من أجل القطع الفنية في العالم، فهي تمتاز بما تبعته في النفس من أفكار لانهائية لها

النحت: وقد سار النحت جنباً إلى جنب مع الرسوم البارزة، فأخرجت مصر من الأسرة الرابعة إلى السادسة أكبر مقدار أخرجته من التماثيل في تاريخها بعد ذلك. وكان الدافع إلى عمل التماثيل دينياً أكثر منه فنياً إذ اعتقد المصريون أن الشخص بعد

أخذت المقبرة في أواخر عهد ما قبل الأسرات تتطور في إحدى طريقتين منفصلتين وهما المقبرة ذات الدرجات والمقبرة التي في شكل حفرة ولكل منهما تطور طويل في عهد الدولة القديمة تكوّن كل قبر مصرى من جزئين رئيسيين : اللحد وهو تحت الأرض وتدفن الجثة فيه ثم مكان العطايا وهو فوق الأرض ويضع فيه أقارب الميت الهبات اليومية من طعام وشراب وغير ذلك مما يحتاجه كي يواصل حياته في القبر ، ويحتل أن بعض المقابر الأولى كانت خلواً من هذا الجزء أو لعله اقتصر على كوم من الرمل أو الحصى ، وسواء هذا أو ذاك فقد تطور هذا الجزء منذ عهد الأسرة الأولى إلى شكل مصطبة ذات جوانب مائلة في أحدها كوة صماء لوضع العطايا تجاهها

وبتولى الأسرة الرابعة الحكم كانت هذه المباني البسيطة قد تطورت إلى تلك المصاطب الحجرية الهائلة التي بناها الأشراف لأنفسهم حول أهرام ملوكهم ، ويقع اللحد تحت المصطبة الأولى نفسها وبداخل المصطبة حجرات لوضع العطايا من أكل وشراب اختلف هذا النظام اختلافاً بسيطاً في الهرم ، أجل كان الملك يدفن في حجرة تحت الأرض منحوتة في الصخر وبملوها هرم كان كالمصطبة تذكراً ظاهراً فوق القبر إلا أن الهرم لم يكن بداخله حجرات العطايا بل بنيت هذه في الجهة الشرقية منه ونظراً لكثرتها فقد أطلق عليها اسم معبد الأهرام ؛ فإن كان الهرم هو تطور المصطبة كما يقول البعض فاما المعبد إلا تطور الكوة الصماء التي كانت توضع العطايا تجاهها

ولما كان الهرم ومعبد قائمين على هضبة مرتفعة عن مستوى الحقول المحيطة بهما بنحو ١٠٠ قدم فقد بنى صاحبه طريقاً متحدراً مرصوفاً كي يسهل الوصول من الوادى إلى المعبد وبنى في أسفل هذا الطريق معبداً صغيراً سمي بمعبد الوادى ، ويقول البعض إن زيارة المعبد الرئيسى كانت قاصرة على أقارب فرعون ورجال بلاطه وإن معبد الوادى كان لزيارة عامة الشعب

ويرى فريق آخر أن معبد الوادى لم يكن سوى مكان يتطهر فيه الزائر قبل أن يصل إلى المعبد الرئيسى ، وما المعبد المعروف بمعبد أبي الهول إلا معبد الوادى لهرم « خفرع » وقد

موته يعيش في مقبرته عيشة لا تختلف كثيراً عن حياته في الدنيا فاهتموا بتحنيط جثته مخافة أن يلحق هذه المومياة العطب ورأوا ضرورة وجود التمثال حتى تحل فيه الروح ، وإلى هذا الاعتقاد الغريب يرجع الفضل في وجود كثير من أجنال التماثيل في العالم وقد وضع المصريون بعض التماثيل من الخشب ومن الحجر ، والقليل منها من الجرانيت والصوان ، وصنعوا كثيراً من التماثيل من حجر الجير اللون ، ومن أهم تماثيلهم تمثال « خفرع » المصنوع من الصوان وتمثال « شيخ البلد » « والكاتب الجالس القرفصاء » المحفوظ بالاقصر « وتمثال نفرت مع الأمير راع حوتب الذى وجد بميدوم وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى »

العمارة

بدأ ظهور فن العمارة في مصر منذ أخذ إنسان ما قبل الأسرات يطن جدران مقبرته بقوالب من طين النيل المحفف في الشمس ، ولعله استعمل هذه القوالب في بناء بيته الساخج الأول ولا يبدأ أهم دور في تطور العمارة في مصر إلا ببدء العصر التاريخي إذ استعمل الحجر لأول مرة في البناء في عصر الأسرة الأولى فبنيت أرضية مقبرة الملك « دن » بأبيدوس من حجر الجرانيت وهذا أقدم مثل معروف لنا ، وبعد أن تنقضى أسرة كاملة تجدد في مقبرة « خاستخموى » أول ملوك الأسرة الثالثة حجرة بأكلها مبطنة بالحجر الجيري

ولا بد أن فن البناء تقدم بخطى حثيثة في الأسرتين الأولى والثانية ، وتدل الحفريات الحديثة في سقارة على أنه وصل إلى درجة عالية أيام الأسرة الثالثة ، ولذا يعتبر العلماء أن هذا التقدم هو نهاية لا بداية عصر معمارى عظيم فقد عثر هناك على أعمدة من الطراز الدورى Doric وكانت النماذج الوحيدة المعروفة لهذا الطراز هي تلك التي عثر عليها في مقابر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة في بني حسن ، أى بعد النماذج السابقة بحوالى ٩٠٠ سنة

ويلى آثار سقارة من حيث الترتيب الزمني معابد أهرام الدولة القديمة ومعابد الشمس في أبي صير ، وإذا كانت عمارة هذا العصر معروفة لنا من الباني الجنائزية فليتنا أن نبحت أولاً تطور بناء المقبرة عند أولئك المصريين الأول